وسطع وجهه نوراً

بقلم: محمد علي وهبة
مصر

مذاق الصبح الوليد كان ممتعا، كبزوغ شعاع الشمس من ركام الغيوم في نهار شتوي مصبوغ بلون المطر.

بعد فراغي من صلاة الصبح، بقيت جالسا، أردد أذكار ما بعد الصلاة وأدعيتها، وعنقي يتمايل يمينا يسارا بحركات شفيفة، وعيناي مغمضتان. رأيت ببصيرة روحي أطيافا ضوئية ملونة، أشبه بنافورات من نور دافق، شديد السطوع، تندفع نحوي من بعيد، تكبر وتتسع مع اقترابها. اختفت سريعا مع صوت اصطدام الأواني ببعضها في يدي أمي، وهي تجهز لنا طعام الفطور. كانت قد دعت لي منذ قليل أن يوفقني الله في عملي،ويرزقني بزوجة صالحة.

لم تعجبني ملامحها الحزينة. قلت لها محاولا تعزيتها:

- ستبقين في قلبي دائما يا أمي.

ثم قلت: حتى بعد زواجي.

وأضفت مبتسما: وحتى آخر العمر.

لم تفلح كلماتي في التخفيف من حزنها، فجرحها بعد موت أبي ما زال ساخنا. كانت تتأمل ملامح وجهي، وبوادر بسمة مبتورة ترتسم على شفتيها، ممزوجة بحزن دفين، كأنها ترى وجه أبي في وجهي. أثارت قلقي عليها، وهي تقول:

- رأيت أباك في منامي.

وبقيت تفكر بملامح جامدة، محتقنة، موشكة على الارتعاش، حتى رأيت خطين من الدمع ينسالان من عينيها على خديها، وهي تقول:

- حالته غيرسارة.

وأغمضت عينيها، وهي تأخذ شهيقا عميقا، أخرجته من فمها مخضوضا متقطعا، وملامح وجهها تعتصر بأحزان عاصفة. حاولت التخفيف من آلامها،طالبا منها الدعاء له بالرحمة، ورددت أمامها:

- رحمه الله.

وتردد في داخلي صوت واهن مقبوض:

لماذا يظهر لها في حالة سيئة؟

لم أنشغل في التفكير بالإجابة. ولكن كلماتها المؤسفة عنه ظلت مسيطرة على أحاسيسي، فتساءلت في قلق:

أليس بمقدوري عمل شيء لإسعادها؟

أرجأت التفكير في الأمر إلى وقت آخر، محاولا العودة إلى تأملاتي الطيفية، وعيناي تنغلقان من جديد. استطعت سريعا أن أجتاز ببصيرة روحي أستار الرؤية الخفية. انفجرت أمامي فجأة شلالات من نور زاه مبهر، صارت

سريعا ظلاما دامسا، مع ظهور بصيص من نور شاحب، رأيت أبي يظهر من خلاله بالصورة نفسها التي كان عليها في آخر أيامه، وهو في مرض الموت، كان منكفئ الرأس، منطفئ الوجه، وكان كيانه بأكمله محاطا بستانرثقيلة من العتمة، كان مستسلما لها، بلا قدرة على الحركة، كأن الدم هارب، أو متجمد في عروقه . انقبض قلبي في حزن، وستائر العتمة تتزايد من حوله، حتى صارت كمادة لزجة تتصاعد منها أبخرة قاتمة، والجو المحيط به يبدو مشحونا بعواصف مكتومة ساكنة . ازداد إحساسي بالحزن لعدم قدرتي على تقديم أي عون له .

أصابتني رعشة مفاجئة، ارتجفت معها أحاسيسي بشدة، ووجدتني أستسلم للرغبة في البكاء، وتساءلت والدموع تترقرق في عيني:

لماذا يحدث له ذلك ؟.

تذكرت أنه كان على قطيعة مع أهله، وتفصله عنهم خلافات، وخصومات كثيرة، قد يكون أكثرها تافها، حتى إنني لم أعرف أحدا منهم كبقية إخوتي وأخواتي . لكنه كان يذكرهم في بعض لحظات صفائه بقوله:

أتمنى لجمعنا الكبير قياما .... .

نسيت بقية العبارة،ولكن أعتقد أنه تمنى حشدهم في عمل جماعي ضخم بهيج . سمعته ذات يوم يقول بلهجة جريحة:

لو أن الناس جميعا تقاربوا وتعاونوا .. ما بقي إنسان تعيسا في هذا العالم.

كان ينسى هذه الأمنيات الحلوة، ربما بسبب زحمة مشاكله، وسعيه الدائم لتأمين معاشنا.

سمعت صوتا جميلا ينساب في أعماقي:

لماذا لا تفعل مالم تعنه الأيام على فعله ؟.

ابتسمت لنفسي مبتهجا، وانسابت رجفة من السرور في قلبي، أحسست على أثرها بقدرتي على اكتشاف سر جديد للتقارب الجميل مع الأهل والبشر جميعا في عالم رحيم، خال من الفرقة والجفوة والقسوة، مغمورا بأفراح اللقاء في أعمال جماعية ثرية، تعود بالبهجة والخير على الجميع.

أخذني الحنين مرة أخرى إلى أبي، فعدت للمحاولة، وعيناي تنغلقان، بقيت مسترخيا لتهيئة نفسي للقائه . توقعت رؤيته مسرورا لسروري، لكني رأيته بالصورة البائسة نفسها. لم أحتمل مداومة النظر إلى وجهه وهو في هذه الحال، فانفتحت عيناي في ذهول، وتبدد إحساسي بالسرور.

بقيت أفكر مهموما وجسدي يتخذ شكلا مقوسا،ورأسي ينتكس مستكينا في حزن، حتى انفجر صوت بهيج في أعماقي يقول لي:

لماذا لم تفعل شيئا من أجله ؟.

فتساءلت متعجبا:

- ماذا يمكنني أن أفعل؟

لم أجد إجابة للسؤال، بقيت جالسا، والجو من حولي يسوده هدوء ثقيل، مشحون بحرارة لافحة، عاد الصوت الداخلي نفسه، وكان كنسائم صيفية رطيبة منعشة، يقول لي:

- صله بالدعاء...

قمت بتنفيذ ما قال على الفور، متوسما في نفسي القدرة على أدائه في يسر، عادت صورته المؤلمة نفسها للظهور أمامي، وملامحه الشاحبة تختلط بصورة وجهه المستنير، وهو يداعبني في حنان وأنا صغير، أحسست بقلبي يتوهج بالمحبة نحوه في صلابة، ولساني ينطلق مبتهلا بالدعاء له:

اللهم ارحم أبي .. واغفر له.

كنت أضغط على الكلمات بشفتي مع نطقي بها في ضعف، ثم في قوة، كررتها مرات عديدة، ونبض قلبي يدق في جنبات المكان من حولي.

ظللت أرددها مع اكتمال تماسكي من الأعماق، حتى رأيت وجهه يرتفع في بطء، ويسطع ببسمة كبيرة مستنيرة،وتجاعيده المنطفئة تتبدل إلى نضارة الزهور، والجو من حوله يصفو ويمتلئ بنسائم ربيعية متألقة، وقد بدأ الدم يسري بقوة منعشة في عروقه .

احتوتني فرحة غامرة، ورجفات قلبي تمتزج برعشات دموع الفرح في عيني بعد تبدل حالته من الانطفاء إلى النور.

جاءني صوت أمي مهزوزا مرتعشا، كأنه من مكان بعيد بهيج، وهي تقول لي:

الطعام جاهز يا حبيبي.

طويت سجادة الصلاة، ووضعتها جانبا، ثم نهضت، لأتهيأ للفطور والذهاب إلى العمل. وأثناء تناولنا للفطور، حكيت لها ما رأيته، فامتلأ قلبها بالبهجة . ولم أتركها حتى رأيت أمارات السعادة تملأ وجهها. ■